الطقوس الدينيّة في أوغاريت

الأب أيوب شهوان

مقدمة

من الثوابت في حياة شعوب منطقة الشرق الأوسط، كما لدى شعوب العالم كافة، هي الطقوس الدينيّة التي ينفطر عليها كلّ إنسان، والتي، مع مرور الزمن، تغتني وتنمو وتطوّر، وتضحي آخر الأمر عامل وحدة بين أفراد أمّةٍ ما، ووسيلة تضرّع وطلب وشكر وتمجيد. هذه الثابتة وُجدت أيضًا في أوغاريت، المملكة التي ازدهرت على الشاطئ السوري الشمالي حوالى العام ١٤٠٠ ق. م.، وزالت حوالى العام ١٢٠٠ ق. م.، أي قبل قرنَين من دخول بني إسرائيل إلى أرض كنعان. فعندما تمّ اكتشاف مجموعة النصوص الميتولوجيّة والطقسيّة والأدبيّة وغيرها، سنة ١٩٢٩، وبلغة قريبة من العبريّة، تبيّن لاختصاصيّي الكتاب المقدس[١] والطقوس الدينية[٢] أنّ بين أيديهم مادةَ بحثٍ ثمينة، إنْ من حيث أسماءُ الأماكن، مثل صور، وصيدون، وأشدود، والنقّب، وإن من حيث أسماء العلم، تارح أبو ابراهيم وغيره، وأنّ في ذلك ترجمة أوغاريتيّة مسبقة لمعطيات بيبليّة عدّة، خاصة أسفار التكوين والمزامير وأيوب، ولمعطيات ليتورجية تفيد في توضيح العديد من الأمور.

ومن المناسب التذكير هنا بأن العلماء الذين انصبّوا على التدقيق في النصوص الأوغاريتيّة، وجدوا في النص البيبلي العبري عونًا ثمينًا لقراءة ما تمّ اكتشافه، وفهمه وتفسيره، إلى أن صارت "الأوغاريتيّة" علمًا قائمًا بذاته، له قواعده، ومعاجمه، وأدبه. وإذا كان اكتشاف نصوص أوغاريت قد أفاد المؤرخين والباحثين في مجال الحضارات الشرق أوسطيّة، فإنه قد فتح البابَ واسعًا لعلماء الكتاب المقدس، والعلوم الانسانيّة، وللمترجمين في الميتولوجيات، ولمحقّقيّ البحوث المقارَنة في علم الطقوس، للفهم، والتوضيح، وإعادة النظر، والتثبُّت، وإعلان آراء جديدة أفضل ممّا كان يُظنّ أنه الحقيقة التي لا سواها.

سنركّز بحثنا في هذه المعالجة الوجيزة على **الطقوس الدينيّة في أوغاريت**[٣]، التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمعطيات الطقسية العبريّة.

١ – "الليتورجيا" الأوغاريتيّة

تم اكتشاف اللوحات الطقسيّة

(١) أنظر مثلاً:
"Ugarit and the Bible", *Ancient Hebrew Research Center* (2003); "Ugarit and the Bible", in: www.theology.edu./ugarbib.

(٢) Anson F. RAINEY, "Ritual and Cul tat Ugarit", *Archaeology Odyssey,* January/February 2004; Pierre BORDREUIL, *La trouvaille épigraphique de l'Ougarit* (1989); "Ugarit", in: www.theology.edu./ugarit,.

(٣) Madeleine KRITIKOS, "Le culte à Ougarit", *Le Monde de la Bible* 48 (1987) 36-37; Dennis PARDEE, "Ugarit Ritual Texts", *The Oriental Institute News and Notes,* 172 (2002); Id, *Ritual and Cult at Ugarit* (Atlanta: SBL, 2002).

الأوغاريتيّة[٤] منذ بدء الحفريات، وحظيَت بأن تكون أول النصوص التي نجح العلماء في قراءتها، تلتها النصوص الميتولوجية والملحمية التي خطفت الأنظار، واستمرّت على هذا الحال حتى عاد الاهتمام بها يحتل حيّزًا من الأبحاث[٥].

تتضمّن اللوحات الطقسيّة الأوغاريتيّة عرضاً مسهبًا ومستفيضًا للتقادم المتنوّعة، وهذا ما يتناسب مع تعدّد الآلهة التي يجري تعدادها بالتفصيل. معظم الطقوس مركّز على جداول بالتقادم لمختلف الآلهة، نتبيّن منها أنّ هناك فرقًا وتمايزًا بين الديانة الأوغاريتية وبين تلك البيبلية؛ يحتل الثيران[٦] والخراف[٧] المكان الأول بين التقادم، إضافة إلى أجزاء من حيوانات أخرى، في تاريخ معيّن من الشهر، خاصة في أول يوم منه. فموت خروف، مثلاً، قد يهدّىء من غضب الإله؛ من المحتمل أن تكون هذه الحالة فريدة في أوغاريت لطقسٍ يُكَفَّر به عن أحدٍ ما عن طريق الاستبدال بخروف.

وتفيد جداول التقادم أيضًا في معرفة نوع الذبائح المقدَّمَة، وذلك من خلال المفردات المتعلقة بها، مثل: "د ب ح"، "ش ل م"، "س ر ف"، الخ. تميّز هذه اللوحات إذًا بين أصناف الذبائح، ونعلم من بعضها أن الملك كان يشارك في ممارسة الطقوس، فيتوشّح بثياب فاخرة[٨]، يقوم بالوضوء من أجل أن يتطهر، مما يستدعي وجود مصطلحات خاصة بذلك، مثل "ر ح ص"، "ب ر ر"، "ح ل"، الخ، ليقدّم بعدها الذبيحة[٩]. وتُضفَى على الملك هنا صفة القدسية وقت الاحتفال، وتُنزَع عنه في نهايته، فيعود هكذا إلى الحالة الدنيوية العادية. هذه المشاركة الملكية هي من المعطيات الهامّة في طقوس أوغاريت. وتتفرّد هذه الأخيرة بعدم وجود أيّ شخص آخَر غير الملك يحتفل بالطقس؛ فلا كاهن، ولا مترئس يحتفل.

كان يصحب هذه الأعمال الطقسيّة إلقاء الأشعار، وتأدية الأناشيد، كالصلاة المرفوعة إلى الإله بعل حامي المدينة، والمدوَّنة في آخر لائحة تقادم عاديّة، وتقديم البخور[١٠]، الخ.

وتخلّد لوحات طقسيّة أخرى ذكرى نقل تمثال إله إلى موقعه، أو توشيحه في القصر الملكي[١١]، وتحفظُ غيرُها نشيداً كان يُتلى مداورة بين الرجال والنساء، بينما كان كل فريق يقدّم ذبيحة تكفيريّة[١٢].

٢- من الطقوس الأوغاريتية إلى العبرية

لقد تغلغلت طقوس العبادة الأوغاريتيّة والكنعانيّة في طقوس العبادة اليهوديّة. فكلمة "شِلِم" العبريّة،

(٤) في الاستشهاد بالنصوص الطقسية الأوغاريتية، نعتمد:

أنيس فريحة، **ملاحم وأساطير من أوغاريت** (الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٦)؛

KTU = M. DIETRICH & O. LORETZ, *Keilalphabetische Texte aus Ugarit* (Neukirchen, 1976).

(٥) A. CAQUOT, "Un Sacrifice expiatoire à Ras Shamra", *RHPhR* 42 (1962); Id, "Rituels", dans son art. "Ras Shamra", *DBS* (1979), col. 1403ss; B. A. LEVINE, "Ugaritic Descriptive Rituals", *JCS* 17 (1963); De TARRAGON, *Le culte à Ugarit* (1980).

(٦) *KTU* 1,39, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques*, t. II., p. 136ss.

(٧) *KTU* 1,111, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 194-196.

(٨) *KTU* 1,41, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 152ss.

(٩) *KTU* 1,39; 1. 41; 1.46; 1.105; 1.106; 1.109, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 136; 156; 158; 165-166; 183; 185-186; 189-190....

(١٠) CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II. , p. 183.

(١١) *KTU* 1,43; 1.91, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 161ss; 167ss.

(١٢) CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques*, t. II., p. 142.

مثلاً، التي تدلّ على "ذبيحة سلام" أو "اشتراك"، تُستعمل في أوغاريت للدلالة على مناسبة تقديم سوائل، وفي قرطاجة على المحرقة. كيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ عند استقرار بني إسرائيل في أرض كنعان، يبدو أنهم تبنّوا المعابد التي انتقلت إلى سيطرتهم، واعتمدوا الطقوس الكنعانيّة دون أن يُحلّوا مكانَها طقوسًا مستوحاة من اليهوديّة، خاصة وأن فرادة هذه الأخيرة لم تكن في إطار التجديد الطقسي بل "اللاهوتي". أضف إلى ذلك تبنّي إسرائيل في أرض كنعان نوعَ الحياةِ الزراعيّة الذي كان قائمًا، متحاشين الطلاق بين حياتهم اليوميّة وديانتهم، عن طريق تطويع هذه الأخيرة للمتطلبات الجديدة؛ وقد شكّلت طقوس كنعان نموذجًا للطقوس العبريّة. فسفر اللاويين حفظ لنا رتبة تقدمة أوّل الحزم التي على الكاهن أن "يحركها أمام يهوه" (لا ٢٣: ١١-١٠)؛ هذه الرتبة ليست صحراويّة بالتأكيد، لأنّ النص المذكور يأمر بني إسرائيل قائلاً: تقدّمونها "عندما تدخلون الأرض التي أعطيكم"، بل هي كنعانيّة، حيث كانت تقدمة أوّل حزمة تعني تجديد الزرع، حسبما نجد في الوصف المأساوي لقصّة بعل ومُوت الأوغاريتيّة.

٣ – رتبة المصالحة

في سياق الكلام على الذبيحة التكفيرية، التي كانت لها مكانتها في الديانة الأوغاريتية، لا بد من الإشارة، ولو بالإيجاز، إلى موضوع الإقرار بالخطايا في أوغاريت؛ فأمام خطر محدق، على المشاركين في رتبة المصالحة[١٣]، والملك والملكة في الطليعة، أن "يقرّوا بخطاياهم التي قد تكون اتّباعَ عادات الغرباء. هذا الإقرار بالخطايا وطابع التكفير عنها الوارد في النص الأوغاريتي، دفع إلى مقارنتها بطقوس "يُومْ كِبُّور" العبرية[١٤]، لكن هذه المقارنة تبقى جزئية، بانتظار أن توضع دراسة شاملة حول "لاهوت الخطيئة" في أوغاريت.

٤ – التقادم في ديانة أوغاريت

تنامى إلى حدّ كبير إكرامُ آلهةِ أوغاريت[١٥]، أي إيل وبعل وداغان[١٦]، كما أيضًا إلاهاتها، أي عناة وعشتروت خاصة، في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م.، ممّا يفسّر تكاثر عدد التماثيل "المصنوعة بالأيدي" من المعدن أو الطين، كما شاع استعمال الطلاسم التي تُنقَش عليها صورة هذا الإله أو ذاك، وشُيِّدَت لها أماكن العبادة، ورُسمت أشكالها على الأعمدة والأواني الخزفيّة، ودُوِّنَت على ألواح من طين أحداثُ حياتها الميتولوجيّة من معارك وصيد وولائم وغيرها.

انطلقت عبادة هذه الآلهة من اعتقادات بوجود مَن يتحكّم بتعاقب الفصول وبمصائر الناس، وانتشرت بشكل واسع بين الأوغاريتيّين، فتهافتوا على إرضائها، والاستغاثة بها، وطلب عونها بشتّى أنواع التقادم. فعلاوة على الذبائح الحيوانيّة التي كانت تُقدّم في الهواء الطلق على مذابح[١٧] الهياكل، مثل هيكل بعل أو داغان، كان كمٌّ كبيرٌ من التقادم يُودَع في مخازن الهياكل أو في معابد البيوت، وهذا ما بيّنته لائحة الموجودات التي تمّ العثور عليها داخل الأمكنة المذكورة.

إضافة إلى ذلك، هناك تقادم ثمينة جعلت المعابد تختزن كنوزاً هامّة، من بينها أدوات وحلى نسائيّة كالقلادات،

(١٣) *KTU* 1,40, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 140-144.

(١٤) CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 142.

(١٥) André CAQUOT and Maurice SZNYCER, *Ugaritic Religion* (Leiden: Brill, 1980).

(١٦) Olivier CALLOT, "Le temple de Dagan (à Ougarit)", *Le Monde de la Bible* 48 (1987) 35.

(١٧) *KTU* 1,105, in CAQUOT et de TARRAGON, *Textes Ougaritiques,* t. II., p. 157.

والأساور، وعلب التبرّج، وتقادم رجاليّة كالسلاح، وعدّة العمل، كانت كلّها توهب للآلهة لاعتقاد واهبيها أنها تجتذب الحماية الإلهيّة لسكان البيت وللأعمال المنزليّة.

ومن أدوات النذور تماثيل من معدن ثمين أو فخار أو حجر منحوت يمثّل إنسانًا يحمل التقادم، أو مؤمنين في وضعيّة صلاة، أو حتى إلاهات الخصب بصور نساءٍ شبه عاريات، أو إلهًا بوضعيّة محارب منتصر؛ أما تماثيل الحيوانات[١٨] فتقوم مقام الذبائح، وبعضها هو شعار الآلهة.

إضافة إلى ما تقدّم، هناك الأدوات الثمينة النادرة، مثل الفؤوس المستعملة للعرض والأبهة، وآلات الذبائح، خاصة الفأس المصنوعة من نحاس وذهب وحديد، والتي عُثر عليها في معبد حوريت، ومنحوتات لحيوانات مألوفة كالخنزير والأسد.

كانت هذه التقادم السبيل الأكيد لنيل حماية الآلهة في عالم كان يُعْتَقَد أنّ كلّ ما يحدث فيه عائد إلى تدخّل الآلهة.

٥- إراقة الدم ومفاعيلها

يؤمن الساميّون أن الدم هو مركز الحياة، وتؤمّن إراقته الخصب الذي من دونه لا حياة. في لا ١٧: ١١، "حياة الجسد هي في الدم"؛ وفي تث ١٢: ٢٣ "الدم هو الحياة". لذلك، يحرّم لا ١٨: ٢١ الذبائح البشرية، و"مَن يقدّم أحد أولاده لِمُولُخ يُعاقَب بالموت" (لا ٢٠: ٢-٥)، و"كل حذاء...، وكل رداء ملطّخ بالدماء تُسلَم إلى النار" (أش ٩: ٤). وأمّا في خر ١٢: ١٣، فيشكّل الدم علامة حماية لبني إسرائيل. وتحذيرًا لهؤلاء من اتّباع هذه العادة، يقول تث ١٢: ٣١: "إنّ الوثنيين يحرقون أبناءَهم وبناتهم على شرف الآلهة"، فلا يجوز لشعب الله أن يقتدي بهم.

مع هذا، لدينا في العهد القديم قصة ابنة يفتاح (قض ١١: ٣٤ي)، التي تهدف نهايةَ الأمر إلى تأمين خصب الأرض؛ بالطبع تُضحّى ابنة يفتاح وفاءً لنذر، لكن تضحية هذه الأخيرة ورفيقاتها، هي من أجل إفساح المجال للحياة والخصب. بالطبع كانت الذبيحة رمزيّة؛ فالذي كان يُقتل وتُقام المناحة عليه، هو إله الخصب الذي تواصلت إقامة النحيب عليه في هيكل أورشليم في عصر متأخر (رج خر ٨: ١٤؛ زك ١٢: ١١).

بالإضافة إلى قصة ابنة يفتاح، هناك أيضًا قصة قتل أناس من نسل شاول (٢ صم ٢١)، إذ تمت هذه العمليّة في الأيام الأولى لحصاد الشعير؛ وغطّت رِصفة أمُّ القتلى جُثثهم بكيس إلى أن بدأ المطر ينهمر؛ المقصود هو طقس يهدف إلى تأمين تدفّق الحياة النباتيّة.

يمكن الاعتقاد أن هذه الطقوس العبريّة هي مستوحاة من الطقوس والممارسات الأوغاريتيّة خاصة والكنعانيّة عامة؛ يكفي برهاناً أوّليًا القتل الذي قامت به "عناة" بعدما علمت بموت بَعَل.

٦ - بناء الهيكل والمطر

كشرط أساسي كي يقوم بَعَل بدوره كإله للخصب في أوغاريت، ينبغي بناء معبد له، وهذا ما تحقّق بالفعل، وكُرِّس المعبدُ في الشهر السابع الذي كان الشهر الأول في روزنامة العبرانيّين القديمة، لأن السنة كانت تبدأ في الخريف. الشهر السابع هو التاريخ الذي فيه تمّ تكريس هيكل أورشليم، أي في شهر أيلول-تشرين الأول حيث كان يحتفل بعيد المظال.

على مثال معبد بعل في أوغاريت[١٩]، كان هيكل أورشليم مرتبطًا بالمطر الذي كان يُنظر إليه على أنه أعظم البركات التي بها ترتبط كل الخيرات الأخرى. ففي صلاة التقدمة

(١٨) A. CAUBET et F. POPLIN, "Les objets en matière dure animale", *Ras Shamra-Ougarit* III. *Le centre de la ville (fouille 1978-1984)*, Paris 1987) 273-306.

(١٩) Olivier CALLOT, "Les temples (à Ougarit)", *Le Monde de la Bible* 48 (1987) 34-35.

التي تلاها سليمان، طلب الملك من الله أن يُنزِلَ المطر، قائلاً: "وإذا احتبست السماء، ولم يكن مطر، بسبب خطيئته إليك، وصلّى نحو هذا المكان...، أنزِلْ مطرًا على الأرض التي أعطيتَها ميراثًا لشعبك" (١ مل ٨: ٣٥).

نتبيّن بوضوح وجود رباط وثيق بين الهيكل والمطر من خلال نصّ آخر، هو للنبي حجّاي الذي يرى في إهمال بني اسرائيل إعادة بناء الهيكل السببَ الأساسيَّ لحلول المصائب بإسرائيل؛ لذلك "حبست السماء فوقكم نداها، والأرض غلّتَها، ودعوتُ بالقحل على الأرض وعلى الجبال" (حج ١: ٩ي). وبذات المعنى يتكلّم زكريا على الموضوع عينه، فيقول: "العائلة التي لا تصعد إلى أورشليم في عيد المظال، لا يكون عليها شتاء" (زك ١٤: ١٧).

يمكن الافتراض إذاً أن معبد بَعَل قد شكّل نموذجًا لهيكل سليمان، وللمظال التي كان العبريون يَبنونها بهدف تأمين ازدهار النبات، كما أيضًا لطقوس استقاء الماء وسكبه، كما نقرأ في ١ صم ٧: ٦: "فاجتمعوا في المصفاه، واستقوا ماءً، وصبّوه أمام الرب". واستناداً إلى التقليد الربيني، كانت الماء تُسكب على المذبح، وتسير في مجرى خاص إلى أعماق الأرض (رج سُوكَهْ ٤: ٩؛ ٥). كان على هذا الطقس الديني أن يؤمّن سنةً غنيّة بالماء. هذه العادة الطقسيّة هي إرث أوغاريتي وكنعاني حَفِظته الديانة اليهوديّة وطقوسها.

٧ – السنة السبتيّة

استنادًا إلى ما كشفته نصوص أوغاريت من معطيات طقسية، يمكننا ربط السنة السبتيّة العبريّة (لا ٢٥: ٤ي) بالاعتقاد الذي كان سائداً لدى الأوغاريتيّين والكنعانيين، بأن النبات قد يكون بحاجة إلى تجدّدٍ عامٍّ كلّ سبع سنوات. ونذكّر هنا أنّ الرقم سبعة هو رمز لمرحلة كاملة، أي إلى الامتلاء والتتميم، مما يقتضي العودة إلى بدء. فبالإضافة إلى البُعد الاجتماعي والأخلاقي، وبالتالي الديني، لهذه السنة لدى بني إسرائيل، كان له بعدٌ حياتيّ من حيث تواصل الخصب في النبات، ثم في الحيوان فالإنسان.

٨ – العبادات، السحر والذبائح

تشكل النصوص الأوغاريتيّة الثمانون بلغة ساميّة غربيّة وفي زمن سابق للبيبليا العبريّة، الشاهد الوحيد تقريبًا المتعلّق بالممارسة الطقسية والسحر في الشرق. في نصوص أوغاريت نصادف عناصر عدّة مشابهة لما في العبادة العبريّة، ممّا يسمح بالاعتقاد بوجود قرابة بين مجموعتَي الطقوس؛ هناك بالمقابل العديد من الفروقات التي تسمح بالاستنتاج أنّه ينبغي أن يؤخذ الفاصل المكانيّ والزمانيّ بعين الاعتبار عندما نحاول أن نقيّم العلاقات بين الشعبين.

تشكّل ممارسة السحر[٢٠] أحد أهم الفروقات الرئيسيّة، لأن هذا النوع من الاستشارة الإلهيّة لا يوجد إطلاقًا في النصوص البيبليّة، في حين تبيّن عدّة نصوص أوغاريتيّة أن الأوغاريتيّين كانوا ينقادون للتوقعات الإلهيّة. وحتى الآن، لا دليل على وجود "النبوءة"، في أوغاريت، أي تبليغ إلهيّ بكلمات بشريّة، لذا، لا يمكننا التكلّم سوى على أنواع أخرى من العلامات. إنّ مجموع العلامات التي لها شواهد في أوغاريت والتي نفهمها، هي بدون شك المجموعة التي ترتكز على السحر بالكبد، أي فحص كبد حيوان لمعرفة أمر ما. في الواقع، اكتشفت في رأس شمرا مجموعة من مجسماتِ كبد خروف، تؤكّد وجود هذه العادة "التبصيرية".

لا سحر إذًا في إسرائيل، لكن الحاجة إلى معرفة إرادة الله، التي هي في أساس السحر والألوهة، يُعبَّر عنها في إسرائيل بالشريعة والأنبياء، وهؤلاء، من خلال أعمالهم الرمزيّة،

(٢٠) Dennis PARDEE, "Cultes, divinations et sacrifices", *Le monde de la Bible,* 120 (1999) 65-67.

يمارسون سحراً معكوسًا، المبادرة فيه هي لله. كل قارئ للعهد القديم يعلم إلى أي حد تتعارض الشريعة والأنبياء مع ممارسات ديانة أوغاريت التي ينبذها بنو إسرائيل لكونها سحريّة، ولأنها في نظرهم لا أخلاقيّة. مع هذا، فإنّ إسرائيل قد التحق أحيانًا بمدرسة أوغاريت كنعان وأخذ إرثها بطريقةٍ ما.

خاتمـــة

قد يطول الكلام على الطقوس الأوغاريتيّة وعلى ما تركته من أثر على الطقوس العبريّة. لذلك نكتفي بما أوردنا، ولو بالإيجاز، مذكرين بأنّ هذه الطقوس التي كانت تهدف إلى استدرار عطف الآلهة لتمنّ على الرعيّة بالازدهار والحياة المديدة، قد اعتمدها بنو إسرائيل، ولو جزئيًّا، مع فارق أساسي وفاصل، ألا وهو حصر الطلبات والصلوات والتقادم بإله واحد هو يهوه، والمعابد بهيكل واحد لسكنى الرب ولإقامة الشعائر الدينية والليتورجية، هو هيكل أورشليم.